في ديوان «لمعُ سراب»*
الشاعر عابد إسماعيل صوتٌ يشقّ الماءَ ويلوّنُ الريح

مرام اسلامبولي**

حين يكون السرابُ صيادَ الرؤية فللزرقة معنى...

أما حين يكون للشاعر نولٌ يحوك به الريحَ من الريح كي يداوي المسافة بالهبوب، أو حينَ شاعرٌ يعلق النجمةَ زراً على قميصه... يلمسُ الهدوءَ... يتحسس نبضَه ويرفعه إلى أعلى الضوء.. سماؤُه مسقوفةٌ بالساعات، وصرخته نيزكٌ يلهو بقبر؛ فحينها... حينها حتماً ستشغف الروح بالشعر، كما يشغف تائهٌ في الصحراء بلمع سراب...

«لمعُ سراب»، المجموعة الشعرية الخامسة للشاعر السوري عابد إسماعيل، مونولوجٌ وجداني يتوزع على ٨٢ صوتاً هي قصائد قصيرة تتأمل عميقاً جداً في الذات الإنسانية، تحاور وتحتفي بكل ما حولها من عناصر الكون والحياة.

يقدم الشاعر لديوانه بعبارات مختارة تذهب في جوهر دلالاتها إلى توصيف السراب الذي يلمع أمامه. فهي تشير إلى "لا شيء يُسمى" لدى أدونيس... إلى "التيه" لدى أبو تمام الطائي وإلى "الجمال البعيد" لدى وديع سعادة.

الشاعر عابد إسماعيل الذي قال مرةً: "الشعر جائزة الخاسر. سلوى النائم بلا حلم..."،

* ديوان صادر عن دار التكوين بدمشق، ٢٠٠٦.

** كاتب من مصر.

يــرى هنا في الســـراب جمالاً... كمـــالاً في التيه وتحرراً من قيود الاســـم والحقيقة، طالما أن الشعر هو العين التي يتوهج فيها لمعُ هذا السراب.

لي صوتٌ يشقُّ الماءَ بعصا الغفلة
و موعدٌ يوقظُ النهارَ على كفّ غريقٍ
لا مرئيٌ أنا مثل ريح تهبّ
أو سماءٍ تسقطُ في الكأسِ
صداي يدلّ عليّ
أسفي النابتُ كالعشب
حزني اللامعُ كجرسِ الماء.

(من الصوت الثالث)

تبدأ الأصوات الثلاث الأولى باستحضار سراب روحٍ يتراءى في شـــبح يخـــرج من الباب، في ضيفٍ أبيضٍ قد مر ثم محاه الدرب، وفي صوتٍ للا مرئي. ثم تتوالى الأصوات في الاحتفاء الصاخب والهادئ في آنٍ معاً بالحـــزن والألم، بالرغبة والأنا، بالحب والوقت والانكســـار.. بالســـماء والريح.. بالصدى وبالموت أيضاً...

واللغة هنا هي المســـرح الحي لهـــذا الاحتفاء، بصخبه حيناً وبانســـيابه الهادئ حيناً آخرَ. فنجد الشـــاعرَ كعادته يتجرأ على اللغة بحســـب الحالة، يرفع من توترها لتغدو قاسية أحياناً كمرآة يشهرها في وجه الحياة الفجّة.

لماذا لا تسكتُ هذه الحياةُ النابحةُ
التي رميتَ لها عظمةَ حياتِكَ؟
لا تسكُتُ حياتُك
التي تهرع إليكَ كألفِ كلبٍ ينبحُ؟

(من الصوت ٣٤)

في حين تغـــدو رقيقةً هادئةً أمـــام أكبر الآلام وأكثرها غموضاً، أمام الحيرة التي تولدها أســـئلة لا إجابات لها.

على الأكتاف يحملون الجثة
أو يحملون الحديقةَ
التي ستزهرُ فيها الجثةُ...
كيف سنفكّ أصابعَ المطرِ
عن عنقِ الحديقةَ؟
كيف سنفكّ أصابعَ الحديقةَ
عن عنقِ الجثةِ؟

(من الصوت ٤٢)

العباراتُ في "لمع ســـراب" فراشاتٌ أنيقةٌ تتواتر بخفة ورشـــاقة، تتلاحق واعيةً تماماً الضوء الذي تتجـــه نحـــوه والمحـــرق الوجداني الذي تشـــع من خلاله، لتتكامل خفقاتها في مشهدية شعرية مكثفة وفريـــدة، يتغلب فيها الرمز علـــى الحكاية وتحيط بكل أبعاد التجربة الإنسانية الرحبة.

بنظرةٍ
تحفرُ قبراً
بصرخةٍ
تهيل الترابَ
تعودُ إلى بيتكَ
وفي رأسِكَ مقبرة.
(من الصوت ٥٠)

كلّ شجرةٍ مقطوعةٍ
أنتَ ظلّها
أيها الحبّ!

(من الصوت ٥٥)

قد يظل الشاعر عابد إسماعيل متهماً بثقافته الغربية، الرفيعـــة، لكنه يقدم قصيـــدة نثر عربية مميزة، تحفل بتجليات روحية عالية تحملُ المشـــهدَ على وتر الإيقاع. سيأخذك هنا حدّ الطرب بإيقاعه الذاتي وروح عاطفته وجملته الشـــعرية المنتشـــية، إنها موســـيقى روح الشـــعر أولاً بـــكل حضورها و طغيانها.

الرحمةَ، أيها المقرئُ الشيخُ،
يا باسطَ الحروفِ على السلَّمِ
يا ملحِّنَ السَّهلِ
يا حذَّاء القافية!

(من الصوت ٦٣)

وكما امتازت قصيدة النثر دوماً، يكثف الشاعر اللحظة اليومية بحيث يغدو الألم مفاجأة تفجرها التفاصيل المعتادة.

أنا المتدحرج كحجر
في ساحة العاصمة
حول معصمي
تدق الساعة الحجرية.

(من الصوت ٥٦)

بالرغم من السوداوية والقتامة اللتين عُرفتا عن قصيدة عابد إسماعيل، إلا أن اللوحة الشعرية في "لمع سراب" قد بدأ يتسرب إليها مزاجٌ لونيٌّ جديد يختلف عن مجموعاته الشعرية السابقة، مزاجٌ يغري الشاعر بتشكيلات لونية وبصرية يستمتع فيها بتناوب الألوان على تحريك المشهد والدلالات والمشاعر الكامنة وراء الصورة، مزاجٌ يجعله شاعراً يلوّنُ الريح والمواعيد...

أيها الخيطُ الأزرقُ، لا تنقطع،
ودَعْ أيامي تطيرُ في الريح الملوّنة
بيضاءَ، أو سوداءَ، لا وزنَ لَها،
كالمواعيد.

(من الصوت ٢٣)

الأخضرُ
مزاجُ الشجرة
الأرجواني
ضميرُ الغروبِ.
(من الصوت ٤١)

والشعر المتأمل لدى عابد إسماعيل هو دوماً شعرٌ يجاهر بوصاياه، الوصايا الكثيرة التي تعلو بها الأصوات آمرةً وناهيةً بحزم الواثق والمدرك لعمق تجربته وتأمله. لكن وصاياه لا تأتي من رؤية فلسفية أو آيديولوجية ما، إنما هي مزيج من صمت الحلم وصوت الضوء.

لا تضع الإكليلَ على القبرِ
تنحني روحُكَ.

❖ ❖ ❖

لا، لا تحدق طويلاً
بالسماء الزرقاء
قد ينبتُ لكَ جناحان
وتطيرُ.
(من الصوت ١٨)

لا توقظوهُ،
البنفسجُ صارَ أطولَ من أحلامِه.
(من الصوت ٢٤)

اغسل الريحَ بالريح
ثم انشرها على الشَّرفة
واتركها نهباً لريحٍ أشدّ.

(من الصوت ٥٨)

يرفع الشاعر من خلال أصواته صوتَ الـ"أنا" في مواجهة الـ"الآخرين" وفي حواره مع الـ"أنت"، يستعير أحياناً صوت وروح الطبيعة والحياة بكل عناصرها من شجر وريح وثلج ويأس وليل وغيرها، كي يجعل أعماقه الداخلية تخاطب الكون باللغة التي يدرك وبالصورة التي يحس.

أنا شجرةُ الدفلى
التي اقتربت من الحزنِ

فاصفرّت أوراقُها.

(من الصوت ٣٧)

ولأن الشـــاعر يذهب عميقاً في صوت نفســـه، فإن هذا الصوت يحاور في بعض القصائد أصوات عظماء الكتابة وشخصياتها، يتمثل تجربة أرواحهم الغائبـــة الإبداعية والحياتية بكل عذاباتها. فها هو ينـــزل مثل كائنات دانتي الـــدرج الحجري الطويل، يرى لوركا الذي ســـقط بطلقة لكن ظله ظلّ يمشي باتجاه المنصة.. يعاتب النفرّي على عبارة لم يفهمها عميان الإشارة. وها هو يحذّر بسم محمد الماغوط أن يمسّ أحـــدٌ عزلته.. يوصي نزار قباني بمعطف قاتم اللون كي يرتديه في جنازة الياســـمين، ويشير إلى هاملت كي يرى شـــفق الأبديـــة يتفتح كالوردة أمام بابه...

لكن يبدو أن رامبو قد اســـتأثر بالإشارة الأهم لدى الشـــاعر هنا، حين يصوّره في الصوت الأخير في المجموعة وهو يركض مسحوراً بلمع سراب، هو سراب القصيدة، حلماً أم وهماً... لا فرق طالما أن الشعر سيظل كما يراه دائماً جائزةَ الخاسر وسلوى النائم بلا حلم...

رامبو الذي انتعلَ الريح
يركضُ تحت سماءِ القصيدةِ
مسحوراً بالسراب.

(الصوت ٨٢).